آراء

حاشية في كتاب وليد دقّة

معن البياري

يضجّ كتاب الأسير الفلسطيني الشهيد وليد دقّة «صهر الوعي ... أو في إعادة تعريف التعذيب» (مركز الجزيرة للدراسات، الدار العربية للعلوم – ناشرون، الدوحة، بيروت، 2010) بحزمةٍ من الأفكار بشأن الاحتجاز والسجن والاعتقال والتعذيب والقهر وانتهاك الروح والبدن، تستثير رغبة بالتداول فيها، ولا سيما أنها تصدُر عن تجربة أسرٍ قاسية في السجن الإسرائيلي (منتهاها الموت!)، وعن اطّلاع عريض على دراساتٍ ومطالعاتٍ في القضايا التي يأتي عليها الكتاب، والذي تذكّر به هذه المقالة تحت وقع نبأ استشهاد هذا الفدائي النبيل عن 38 عاماً، في الأسر، أول من أمس الأحد، بسبب إهمال طبّي عومل به، في ما يشبه جريمة إعدام مشهودة. ولئن يُحسب هذا الكتاب، على قلة صفحاته، وعلى ما فيه من مزاوجة بين التأملي الخاص والفكري البعيد، بين النظري المجرّد والتحليلي المباشر، مرافعة ثقافية، في الأساس، بشأن موضوعة الانتهاك الذي يُحدثه الحبس، إلا أنه، في الوقت نفسه، مساهمة نوعية، أظنّها نادرة المثال، في إشهار الأسير الفلسطيني مقاربة خاصة في هذه الموضوعة، وتعييناً في سجون الاحتلال التي أضاء دقّة على تمايزاتها وخصوصياتها.

سطورٌ معدودةٌ، عارضة، تمرّ في الكتاب، عن نصوصٍ كتبها أصحابُها عن سجونٍ أخرى، سطور أشبه بالحاشية العابرة، في سياق التأشير إلى شذوذ القمع والتعذيب في السجون الإسرائيلية عن حالات القمع والتعذيب، لا تدلّ فقط على سعةٍ في معرفة الأسير الشهيد، المثقف، وإنما أيضاً على نباهة في التقاط الجوهري في الظواهر والقضايا والأسئلة.

يكتب وليد دقّة «لا نواجه هنا ما واجهه ووصفه فوتشيك في كتابه «تحت أعواد المشانق»، وليس الحديث هنا عن شيءٍ يشبه سجن تازمامرت في رواية «تلك العتمة الباهرة» للطاهر بنجلّون. ولن تجدوا وصفاً يشبه وصف مليكة أوفقير للسجون المغربية. نحن هنا لسنا في سجن أبو زعبل، ولا حتى في أبو غريب أو غوانتانمو، من حيث شروط الحياة، ففي كل هذه السجون تعرف معذّبك وشكل التعذيب وأدواته المستخدمة، وأنت تملك يقيناً على شكل تعذيبٍ حسّي مباشر، لكنك في السجون الإسرائيلية تواجه تعذيباً أشدَّ وطأة «بحضاريّته»، يحوّل حواسّك وعقلك إلى أدوات تعذيبٍ يومي، فيأتيك هادئاً متسلّلاً لا يستخدم في الغالب هراوة ولا يقيم ضجّة. إنه يعيش معك رفيق الزنزانة والزمن والباحة الشمسية والوفرة المادية النسبية».

ليس اعتباطاً أن يرد الاقتباس غير قصير هنا، فالمؤدّى منه أن وليد دقّة يأتي على تجارب بالغة الفظاعة في السجون، كما دلّت عليها الكتُب التي ذكرها، يوميات التشيكي السلوفاكي، يوليوس فوتشيك (1901 – 1950) عن سجنه في براغ، وهو الذي ناهض النازيّة والفاشية، وعدّت يوميّاته (تُرجمت إلى لغاتٍ عديدة منها العربية)، ورواية بنجلّون التي استوحاها من أحاديث طويلة أفضى بها إليه سجين «تازمامرت» في المغرب، عزيز بنين، وتداخل فيها بعض المتخيّل، وحافظت على جنسها رواية (لم يرض عنها بنين واشتدّت خلافات حادّة بينهما)، وكذا ما كتبته المغربية مليكة أوفقير (ابنة الجنرال محمّد أوفقير) في كتابها «الغريبة»، والتي ذاقت، مع والدتها (لها كتاب «السجينة») وإخوتها، آلاماً مهولة في سجن مغربي بالغ الفظاعة سنوات. يحيل وليد دقّة على هذه النصوص، بإيجاز شديد، لا ليهوّن من فظاعة سجون الاحتلال أمام ذلك السجن في تشيكوسلوفاكيا وذينك السجنيْن المهولين في المغرب، وإنما للتشريح (ما أمكن) في استهداف المحتلّ الإسرائيلي روح الأسير الفلسطيني وعقله. تتّسق هذه الانتباهة، العارضة جداً، مع ما يكتب عنه عزمي بشارة في مقدّمته الكتاب الرائق، إن «للكتابة عن السجون حساسية لا يدركها إلا من عاشها، فالأسرى منشغلون بأدقّ التفاصيل تستحوذ عليهم أمورٌ تبدو من خارج السجن قليلة الأهمية، لكنها تبدو مصيرية للأسير». ... ومن كثيرٍ مدهش، محزنٍ بالتأكيد، أن يرى سجين جلبوع نفسَه في حال أقلّ فداحة مما كتبَ عنه الطاهر بنجلّون في روايةٍ (نابهة بحسب كاتب هذه المقالة)، غير أن ثمّة تفاصيل أخرى أشدّ هولاً على «العقل والروح».

الدعم الأميركي للنظام العراقي

أحمد سعداوي

بعد أسبوع من الذكرى الـ 21 للاحتلال الأميركي العراق، ربما يكون رئيس الوزراء العراقي محمد شيّاع السوداني على موعد مع الرئيس الأميركي جو بايدن، في أوّل لقاء من نوعه بينهما. لا معلومات مؤكّدة عمّا سيجري في هذا اللقاء أو عن المفاجآت التي قد تحدُث، وهل سيفرض السوداني شروطه على الجانب الأميركي، كما يأمل بعض المتحمّسين، أو أنّ الأكثر واقعية هو العكس: سيجلس السوداني ليتلقّى تعليمات من الجانب الأميركي وتحذيرات؟ الشيء الذي يمكن أن نثق به أن رئيس الوزراء مهتمّ جداً بهذه الزيارة، ويعتقد بأهميتها، وهو اهتمام لا يشاركه إياه ربما إلا بعض قيادات كتلته التي خرج منها (دولة القانون). أعتبرت شخصيات كثيرة منضوية تحت تحالف الإطار التنسيقي، الحاكم حالياً، زيارة رئيس الوزراء السابق، مصطفى الكاظمي، إلى الولايات المتّحدة، في منتصف 2021، دعماً له ولتوجّهه السياسي الذي يوصف بأنه قريب من المحور الأميركي وبعيد عن المحور الإيراني، وأنطلى هذا التصوّر حتى على داعمي الكاظمي ومؤيديه في وقتها، لكن الحقيقة أنّ أميركا داعمة للنظام السياسي العراقي ما بعد 2003، بغضّ النظر عمّن يجلس في كابينة مجلس الوزراء. التفصيل المهم في دعم أميركا مدى استجابة من يشغل هذا المنصب الحسّاس لمتطلبات منصبه، ضمن الظروف الواقعية للعراق، وإمكاناته وقدراته، ودوره في منطقة هي الأكثر سخونة في العالم منذ سنوات.

سيذهب السوداني، على الأغلب، للقاء بايدن، وهناك في أميركا معارضون سياسيون عراقيون يأملون منذ سنواتٍ أن تتعامل معهم واشنطن بجدّية مشابهة للتي فعلتها إدارة جورج دبليو بوش، عشيّة غزو العراق، وأن تحملهم على دبّاباتها وحاملات طائراتها ليكونوا الطبقة السياسية البديلة عن النظام الحالي، متناسين أنّ الظروف التي صنعت غزو العراق في 2003 كانت خاصّة، وكان الغزوان المترادفان لأفغانستان ثم العراق محمولَيْن على زخم عاطفي صنعته أحداث 11 سبتمبر (2001)، كما أنّ الإدارات الجمهورية والديمقراطية المتعاقبة كانت تنتهج أساليب مختلفة ربما، في التعامل مع العراق، غير أنّها كانت متفقة على ما يبدو في جملة أشياء، لعل من أهمها دعم استقرار النظام السياسي في العراق، رغم كلّ المشكلات التي يغطس فيها هذا النظام، ويصنعها في أحيان كثيرة.

لقد راقبت الولايات المتّحدة كيف أنّ الجمهور العراقي نزع ولاءه للطبقة السياسية الحاكمة في تظاهرات أكتوبر/ تشرين الأول 2019، وكيف أنّ مرجعية النجف نفسها غسلت يديها من تأييد هذا النظام، ولكن واشنطن بقيت داعمة للنظام، لأسباب منطقية منها: عدم تبلور البديل السياسي، والخشية من أنّ دعم المؤيدين من العراقيين لإسقاط النظام السياسي سيؤدي إلى فتح الباب أمام فوضى لا يعرف أحد إلى أين يمكن أن تودي. تعرف الولايات المتّحدة أنّ النظام السياسي الحالي واقع تحت سيطرة الفصائل المسلّحة، والتي هي في غالبيتها تتبع الأوامر الايرانية، ولكنها لا ترى مشكلة كبيرة في هذا الأمر. فلأول مرّة منذ سنوات هناك استقرار شبه تام للأمن في العراق، وفق المقاييس الأميركية، وليست العراقية الداخلية، وبالإمكان غضّ الطرف عن الخروقات الكثيرة في ملفّ حقوق الإنسان.

مشكلة واشنطن هي في ضبط نشاط هذه الفصائل، وألّا تتمادى خارج الأدوار المتوقّعة منها. وحين توجّه ضرباتٍ عقابية فهي تعلم أنّ الفاعل السياسي العراقي يعرف من هو المذنب، وأنّه لن يوجّه اللوم إلى أميركا، وإنما لمن يخرق حدود «اللعبة». لذا، يمكن أن يبيع رئيس الوزراء العراقي للفصائل كلاماً عن طلب جدولة لانسحاب القوات الأميركية من العراق، وغير ذلك من مطالب «غير واقعية» حاليّاً، ولكن هذا لن يُؤثّر على العلاقة الاستراتيجية العميقة بين الولايات المتّحدة والنظام السياسي العراقي، التي تستفيد الفصائل المسلّحة من منافعها.

«دير ياسين»: الموت أو الرحيل

سوسن جميل حسن

مضت 77 عاماً على مذبحة دير ياسين. ففي التاسع من إبريل/ نيسان من العام 1948 نفّذت عصابات أرغون برئاسة مناحيم بيغن، وشتيرن التي ترأّسها إسحق شامير، بدعم من «بالماخ» و«هاغاناه»، مذبحةً لتهجير سكان القرية، وبثّ الرعب في القرى والمدن الأخرى، خلّفت نحو 254 شهيداً. لم تكن الأولى، ولم تصبح الأخيرة، فهناك في الوقت نفسه مئات القرى دُمّرت وسُوّيت منازلها بالأرض، ووزّعت أراضيها ومزارعها بين سكّان المستعمرات اليهودية التي أنشئت على أنقاضها، والمجازر مستمرّة بالتوازي مع الإمعان في مصادرة الأراضي وبناء المستوطنات، وأكبرها حرب إسرائيل منذ ستة أشهر، إذ ترتكب كلّ ساعة مجزرةً في غزّة أمام مرأى العالم الذي تغيّر كثيراً منذ تلك المجزرة. وإن يمكن القول إنّ مجزرة دير ياسين أسّست لاستراتيجيةٍ طويلة الأمد، وأصبحت رمزاً لـ «ترانسفير» خطّطت له الحركة الصهيونية، وعنواناً لمشروع استعماري استيطاني عنوانه «الموت أو الرحيل».

بعد صدور قرار الأمم المتحدة بتقسيم فلسطين، في 29 نوفمبر/ تشرين الثاني 1947، اتّخذت القيادة الصهيونية قراراً بوضع خطّة التطهير العرقي، التي تنفذها إسرائيل إلى اليوم بكلّ الوسائل والأساليب لمحو الوجود الفلسطيني. كان المندوب السامي البريطاني على مسافة قصيرة من المجزرة، لأنّ حكومة الانتداب البريطاني كانت تسيطر على فلسطين، لكنها لم تتدخّل لمنع المجزرة وحماية المدنيين، رغم أنّ من واجب قواتها ذلك. بل حتى رئيس وزراء إسرائيل حينها، ديفيد بن غوريون، حمّل، ويا للعجب! الحكومة البريطانية والمندوب السامي البريطاني والجيش البريطاني المسؤولية عن إبادة قرية دير ياسين بأسرها، لأنّها قصّرت في توفير الحماية للمدنيين الفلسطينيين، بينما تقتل إسرائيل المدنيين منذ بواكير نشوئها، بعد أن أُعْلِنَتْ «دولة»، وهي قوة محتلّة.

لم تمارس القرية، التي بلغ عدد ساكنيها في ذلك الوقت نحو 750 فرداً، أيّ تهديد في أي يوم للمستعمرات اليهودية القريبة منها، بل كانت قد وقّعت مع مستعمرة جفعات شاؤول معاهدة عدم اعتداء، خلافاً لموقف الهيئة العربية العليا في القدس، لكنّ هذا لم يَحْمِها من الإبادة الجماعية، ومن ذبح الأطفال والنساء والشيوخ والرجال، بل اقتادت العصابات المعتدية خمسة وعشرين فلسطينياً أسرى في شاحنات مرّت عبر حي نحلئوت باتجاه معسكر يهودا، وبصق جمهور من اليهود على الأسرى وقذفهم بالحجارة، مع شتمهم بأقذع العبارات، ومن ثم قتلوا جميعهم. أما رئيس عصابة أرغون الإرهابية، ورمز «أبطالهم»، مناحيم بيغن، فقد قال في ليلة المذبحة: «احتلال دير ياسين إنجاز رائع»، ووجّه رسالة إلى القادة الذين نفّذوا المجزرة الجماعية وأبادوا القرية العربية عن بكرة أبيها، وفيها: «تقبّلوا تهانينا على هذا النصر المدهش، انقلوا إلى الجميع أفراداً وقادةً أننا نصافحهم فخورين بروحهم القتالية الغازية التي صنعت التاريخ في أرض إسرائيل وإلى النصر. كما في دير ياسين، كذلك في غيرها، سنقتحم ونبيد العدوّ، ربنا! ربنا لقد اخترتنا للفتح!».

كان مندوب الصليب الأحمر في القدس، الفرنسي جاك دورينيه، أوّل من دخل دير ياسين بعد إبادة سكان القرية، بعد أن طلب منه السكان العرب في القدس، في اليوم التالي للمجزرة، التوجّه إلى القرية ومعاينة الواقع. اتصل دورينيه بالوكالة اليهودية وبقيادة «هاغاناه» فأنكروا علمهم بالمجزرة، بل نصحوه بعدم التدخل كي «لا يقضي بذلك على مهمته الإنسانية ويسيء إليها»، ورفضت تقديم الحماية له إذا ما قرّر دخول القرية. هذا ما تمارسه إسرائيل اليوم في حربها على غزّة، بكلّ ما راكمت وطوّرت، منذ إعلانها، من تجارب وخبرات، وعنجهية غذّاها إفلاتها من العقاب على مر السنوات، والممارسات الوحشية والاعتداء، فهي لم توفّر مؤسسة دولية تعمل في المجال الإنساني إلّا وهاجمتها ودمّرت مقارّها، وقتلت عدداً من أفرادها، آخرهم من قتلتهم من «المطبخ العالمي»، وكأنّ إسرائيل، وقادتها الذاهبين في تطرفهم ووحشيتهم إلى أقاصي ما يمكن للشر أن يصل، مقتنعون تماماً أنّ للعالم قوانينه ولإسرائيل قوانينها، وأنّ ما يطبّق على باقي الشعوب لا يصحّ عليها، فهي مهما تمادت في غيّها ووحشيتها «تدافع عن نفسها»، بينما لم تكفّ منذ إعلانها دولة إلى اليوم عن قتل شعب بكامله، وتهجيره واحتلال أراضيه والسطو على ممتلكاته، بل صار هذا السلوك مقدساً يلتقي عنده المتدينون والعلمانيون، فلا يحق لهذا الشعب الدفاع عن نفسه، وكلّ محاولة من هذا النوع هي «إرهاب»، على العالم أن يقتنع أنه كذلك، ويدعمها في القضاء عليه. إسرائيل التي تتحمّل المسؤولية القانونية والمادية والأخلاقية والإنسانية عن قتل الفلسطينيين وتهجيرهم، وإقامة المستوطنات على أنقاض قراهم وبلداتهم، وجعلهم لاجئين منذ 1948، لم يستطع العالم مجتمعاً، ولا الدول العربية، إجبارها على تنفيذ القرار رقم 194 الذي يؤكّد حقّ العودة. فبعد مرور 76 عاماً على القرار الذي تبنتّه الجمعية العامة للأمم المتحدة وتقرّر فيه وجوب السماح بالعودة للفلسطينيين اللاجئين إلى ديارهم والعيش فيها بسلام، ووجوب دفع تعويضات عن ممتلكات الذين يقررون عدم العودة، ها هي إسرائيل تمارس اليوم كلّ محاولات التهجير القسري بحق سكان غزّة، وفلسطينيي الضفة، رغم استنكار شعوب العالم، وحرج داعميها وحلفائها، ورغم الاضطرابات الداخلية التي تعمّ المجتمع الإسرائيلي وتقسّمه انطلاقاً من طريقة التعاطي مع ملفّ الرهائن، الذي هو أولوية لمعارضي سياسة نتنياهو وإدارته الحرب. أما ما يمارسه جيش الاحتلال من وحشية وقتل وإبادة بحق الشعب الفلسطيني، فقضية أخرى غير مطروحة بشكل وازن بالنسبة إلى الإسرائيليين، فإن وُجِدَت أصوات تدعو إلى وقف الحرب والتفاوض على صيغة لحلّ القضية وتحقيق السلام، فهي أصوات قليلة وغير فاعلة في الوقت الراهن، ولن تكون فاعلة في وقت منظور، ما دامت إسرائيل ماضية في مشروعها الكبير، تتقاطع مصالحها مع مصالح داعميها، خاصّة الولايات المتحدة.

> **دير ياسين تنهض اليوم لتحتل الوعي والوجدان، فهي تتكرر كلّ يوم منذ 7 أكتوبر بوحشية أكبر**

دير ياسين تنهض اليوم من جديد لتحتل الوعي والوجدان، فهي تتكرر كلّ يوم منذ 7 أكتوبر/ تشرين الأول الماضي، بوحشية أكبر، ليس نيّاتٍ وممارساتٍ فحسب، إنما أدوات قتلٍ أيضاً، ابتدعتها التقنيات الذكية التي انتقدها أنطونيو غوتيريس بقوله: «أشعر بالقلق إزاء التقارير التي تتحدث عن استخدام الجيش الإسرائيلي الذكاء الاصطناعي في تحديد الأهداف التي يتم قصفها، خاصة في المناطق المكتظّة بالسكان، ما أدّى إلى سقوط ضحايا مدنيين عديدين، القرارات التي تؤثّر على العائلات في قطاع غزّة يجب ألا تترك للذكاء الاصطناعي، الذي ينبغي أن يستخدم لمصلحة العالم لا لشنّ حرب والإفلات من المحاسبة».

لكن إسرائيل تفلت من العقاب، مع كلّ التصريحات التي أطلقها أخيراً الرئيس جو بايدن أو غيره من رؤساء دول وحكومات داعمة لها، فلم نرَ عقوبة جديّة فرضت على إسرائيل. مع هذا، إنها اليوم كما الوحش المحاصر، لقد أوصلتها الحرب في غزّة إلى حالة قصوى من التوتر والارتباك، على الرغم من الفاتورة الكبيرة التي دفعتها غزّة، هذا هو قدر الشعب الفلسطيني، أن يدفع غالياً ثمن حقوقه المنتهكة، فالحرية والكرامة ثمنهما باهظ.

(كاتبة وروائيّة سوريّة)

كاريكاتير **عماد حجاج**

ربيع بغداد الذي لم يُزهر

إياد الدليمي

لا يمكن لمن عاش تلك اللحظات أن يمر مرور الكرام على تاريخ 9 إبريل/ نيسان، فهو تاريخ مفصليّ غيّر لا في حياة الفرد العراقي وحسب، وإنما في حياة المجتمعات العربية والإقليمية، ناهيك عن التغيرات التي أحدثها في المنطقة والعالم، فهي ليلة الاحتلال، ليلة دخول الجنود الأميركيين إلى بغداد. يومٌ حفرَ تفاصيلَه عميقاً في جدار ذاكرة العراقيين، ويبدو أنّه سيبقى كذلك، فلا مناص من التخلّص منه ومن تأثيراته التي تلازمنا. لم نكن، نحن ثلّة من الصحافيين العراقيين، نقبل أن نصف ما جرى في ذلك اليوم من عام 2003 بأنّه يوم «سقوط» بغداد، كنّا نرفض ذلك الاصطلاح الإعلامي الذي نحته أناس لا يبدو أنهم عراقيون؛ إعلام أجنبي مستعرب، أو غير ذلك. لكنّ المهم أنّ المصطلح لم يكن مستساغاً. كان مؤلماً إلى حد أننا كتبنا في صحفنا التي صدرت عقب الغزو عن أهمية أن يعي العراقيون خطورة المصطلح، خصوصاً أنّ بغداد، في اليوم الثاني لدخول قوات الاحتلال، نهضت سريعاً وأظهرت نفسها مدينةً مقاومة لا تقبل أن تُحتلّ. أتذكّر جيداً يوم بدأت أولى طلائع المقاومة العراقية بتنفيذ عملياتها، لم يكن قد مضى وقت على دخول الدبابات الأميركية إلى بغداد، ربما في اليوم التالي تحديداً، 10 إبريل، بدأت أولى تلك العمليات. يقول مؤرّخون إنّها كانت في الأعظمية ببغداد، ويقول آخرون إنّها كانت في مدينة بعقوبة شمال شرقي العاصمة. على أي حال، كانت أسرع مقاومة في التاريخ، فما هو إلا يوم أو ساعات حتى انبثقت طليعة مقاومة العراقيين للاحتلال.

وعلى ذكر هذه المقاومة، يحاول اليوم بعض ممن صفقوا للاحتلال وتعاونوا معه وركبوا سفينته، أن يصادروا التاريخ من خلال حديثهم عن «مقاومتهم». بعضهم يتحدث عن جيش المهدي التابع لمقتدى الصدر، وآخرون عن كتائب وفصائل أخرى ما كان لها من وجود يومها. الحقيقة والتاريخ أصعب من أن يزوّره هؤلاء، فجيش المهدي لم يكن لديه وقت لمقاتلة الأميركيين، وهو الذي تولّى بالتعاون مع مليشيات بدر التابعة لـ«المجلس الأعلى»، يومها، اغتيال الكفاءات العراقية، ومن ثمّ التحوّل لاغتيال العشرات من العراقيين بذرائع طائفية، قبل أن تندلع مواجهتهم الطائفية الأكبر عقب تفجيرات سامراء في عام 2006. وإذا كان بعضهم يتحدث عن المقاومة العراقية في النجف، وتحديداً في العام 2004، يوم خاض مقاتلو جيش المهدي التابع للصدر مواجهات ضد القوات الأميركية، فينبغي التذكير بأنّ تلك المقاومة ما انطلقت إيماناً بضرورة مقاومة المحتل، وإنما بعد أن حاولت قوة أميركية عراقية اعتقال مقتدى الصدر، بموجب مذكّرة اعتقال بتهمة قتل عبد المجيد الخوئي في عام 2003، ثم تطوّرت إلى مواجهات مسلّحة، ويمكن الرجوع إلى حديث مقتدى الصدر مع قناة الجزيرة عقب الغزو، ورأيه بالاحتلال ومقاومته، وهو الذي قال يومها إنّه لا وجود لفتوى بمقاومة الاحتلال. اليوم، ولأن سوق المقاومة مطلوب إيرانياً بحجة دعم غزّة في صدّها للعدوان الإسرائيلي، فإننا نجد العشرات من العمليات المسلحة التي كانت تنفذها المقاومة العراقية في مناطق عدة من العراق عقب الغزو الأميركي تزوّر وتنسب إلى فصائل لم تكن موجودة أصلاً في ذلك التاريخ، ما عدا جيش المهدي طبعاً، وهنا نقول ونردد دائماً بأنّ النائحة الثكلى ليست كالنائحة المستجيرة، شتّان بين من أخذته حميته الوطنية والدينية والقومية لمقاومة المحتل، ومن كان ينتظر تعليمات تأتيه من خارج البلاد؛ يقاوم أو لا يقاوم.

عموماً، ها قد مضت 21 عاماً على الاحتلال الذي غيّر وسيغيّر أكثر وجه العراق والمنطقة، مضت تلك السنوات وما زالت العملية السياسية، التي فصّلتها الولايات المتحدة عند الخياط الإيراني، لا تستوعب الجسد العراقي المثقل بأزماتٍ كثيرة، ولا تليق به، بل وفي كثير من الأحيان تظهر تشوهات وتقرّحات عقدين من الغزو والاحتلال. ليس من السهولة بمكان عمل جردة حساب لما يعانيه العراق اليوم من مشكلات، يكفي أن نعرف أنّ كلّ شيء في هذا العراق يبدو وكأنّه على صفيح ساخن، عمليته السياسية هشة، استقرار أمني محكوم بتوازنات داخلية وخارجية، اقتصاد ريعي يعتمد على النفط فقط، ولا شيء غير ذلك، أكثر من 72 مليشيا مسلّحة مُشرّع وجودها بالقانون، قطاع الصحة، التعليم، الخدمات، ملف النازحين، ملف العلاقة بين بغداد وأربيل، ملف المناطق المنزوعة السكان، وأكثر من هذا كلّه وذاك، وأصعبه، ملف سيادة البلاد، يكفي أن تعلم أنّ قادته يصرّحون علنا أنهم ينتظرون تعليمات المرشد الإيراني في الردّ على إسرائيل.

فعلا هو ربيع لم يُزهر يا بغداد! ربيع أصبح بحاجة إلى ربيع، عسى أن يصنعه هذه المرة أهل العراق لا أن يأتيهم من خارج الحدود.

> **لم نكن نقبل أن نصف ما جرى في 9 إبريل بأنّه يوم «سقوط» بغداد**

(إعلامي عراقي في الدوحة)

الكتابة عن الحرب

عاطف أبو سيف

الكتابة عن الحرب جزء من عيش هذه الحرب، وهي سيرتها المحجوبة. حين بدأ جيش الاحتلال شنّ عدوانه على قطاع غزّة، قبل ستة أشهر، كانت الصحافة تقوم بدور كبير في كشف الجرائم وتسليط الضوء على ما ترتكبه طائرات الاحتلال وبوارجه ومدفعيته من مذابح بحقّ البشر والحجر والشجر، وكان ثمة قصص تخرج تباعاً عمّا يجري. مع ازدياد حدّة العدوان وتصاعده بشكل متزايد يوماً بعد آخر، بات ما يكتبه الكُتّاب والشعراء والفنانون والمُدوّنون من شهادات وحكايات شخصية، وحتى بوستات (تدوينات) قصيرة على صفحات التواصل، الصورة الأخرى لغياب الصورة الصحافية بعد كلّ ما ارتكبه جيش الاحتلال بحق الصحافيين والمؤسّسات الصحافية. أصبحت الكتابة عن الحرب وعن الحياة خلال الحرب، وبالطبع عن الموت وعن النجاة بقدر ما هي أمر شخصي، نافذةً عامةً للإخبار عن الواقع في قطاع غزّة. في لحظة معينة انقطعت الأخبار وحاولت دولة الاحتلال فرض حصار على المعلومة، وعلى الخبر وعلى الصورة، ولم يبقَ إلا تلك الكتابات التي بدت غير منظّمة وغير منتظمة، إذ ارتبطت أكثر بالوقت وبالتوقيت، وبتوفّر الإنترنت وتوفّر الكهرباء أيضاً، وكانت تلك الكتابات تقدّم معلومات شخصية عن حربٍ عامة، وتقدّم حالة فردية وسط مذابح جماعية، لكنها في المتن، وعميقاً، تتضمّن معلومات صحافية دقيقة تصلح لنشرات الأخبار. وكما كان الشعر ديوان العرب، وكما كانت الكتابة سجلّ الحياة، كما يمكن القول، كانت شهادات الكتّاب والفنانين والمُدوّنين وحتى تعليقاتهم الشخصية على صفحات بعضهم بعضاً، مادة صحافية بامتياز، تُخبِرُ عن واقع مغلقٍ تجري ملاحقة كلّ ما يصدر عنهُ ومنع كلّ ما يمكن أن يشكّل تهديداً لحالة التعتيم عليه.

والكتابة عن الحرب قديمةٌ قدم الكتابة ذاتها، وقدم الصراع بين البشر أيضاً. وربما انضوت أوّل النصوص الكبرى في تاريخ الكتابة في الشرق كما في الغرب، في الأساس، تحت ما يمكن تسميته أدب الحرب، فهي كتاباتٌ عن الحرب، الإشارة هنا إلى ملاحم الشرق، خصوصاً ملحمة جلجامش مثلاً، وإلياذة هوميروس الإغريقي، وإنيادة فيرجل الروماني. ولا يمكن تخيّل الأدب العالمي عن الكتابة عن الحرب بأشكالٍ مختلفة، سواء ضمن الأدب الوطني والقومي الذي يمثّل الصراع ضد الاحتلال أو ما نعرّفه في قاموسنا الأدبي بأدب المقاومة أو أدب المعارك، وربما بعض الروايات الشهيرة التي يمكن تصنيفها روايات حرب، خاصة رواية هيمنغواي عن الحرب الأهلية في إسبانيا «لمن تُقرع الأجراس»، إلا إشارات في هذا السياق. جوهر الكتابة عن الحرب هي الكتابة عن الفرد وعن الإنسان في صراعه من أجل البقاء حتى لو ارتبط هذا ببطولة يتم تجسيدها، مثل حال الآداب الكلاسيكية بوصف البطل في تلك الآداب من النبلاء والقادة أو بتفاصيل الإنسان ومعاناته في وجه قوة الحرب غير المحتملة، وما يرتبط بهذا من تعظيم للذات وتقديس للنضال، مثل أدب الحروب الأهلية أو شعر الحربين العالميتين، وأدب المقاومة، وأدب مناهضة الاستعمار، وما يعرف بأدب ما بعد التحرّر أيضاً. في السياق الحالي، ثمّة إدراك من الكُتّاب والفنانين في غزّة لأهمية الكتابة عما يجري، والكتابة عنه من وجهة نظر شخصيّة، بمعنى التركيز على الخاص وعلى تفاصيل الحياة العادية من دون الولوج في وهج ما يجري، ومن دون تغييب ما يجري مع هذا. ثمّة طريقة خاصة تجعل الحرب شيئاً فردياً وشيئاً خاصّاً جداً، وهي كذلك في حقيقة الأمر، فالحرب قصّة شخصيّة لكلّ فرد، كما هي مجموع كلّ تلك القصص. منذ السابع من أكتوبر، ظهرت الكتابات الفلسطينية عن الحرب بأشكال مختلفة، وإن كانت صياغات الإعلام الاجتماعي أكثرها شيوعاً لضرورة وسرعة التخاطب، لكنها مع الوقت بدأت تأخذ نسقاً أكثر انتظاماً، إذ تطوّرت إلى نصوص ومشاريع كتابة محدّدة، ظهر بعضها في كتب جماعية أو كتب فردية. هذا الإدراك فرضته جملة عوامل، ربما أولها بشاعة ما يجري وقسوته وقسوة الظروف التي على الإنسان (والكاتب هنا إنسان) أن يعيشها، وتعتمد في كلّيتها على غياب كلّ مقومات الحياة الحقيقة. فيما يكمن العامل الثاني في طول المدّة التي استغرقها ويستغرقها العدوان. خلال الفترات السابقة، كان الاحتلال يشنّ بشكل مستمر حروباً على غزّة وربما كان أطولها قبل هذه الحرب عدوان 2014، لكن كتاباتٍ عن الحرب لم تكن تظهر بشكل منتظم إلا قليلاً، ويمكن ذكر بعض هذه الحالات في حربي 2014 و2021، لكنّها مع ذلك كانت جهوداً فردية ونصوصاً محدّدة لبعضهم، بيد أنّ ما يحدث حالياً هو ظهور كثير من كتاباتٍ شبه يومية، حتى أنّ جلّ الكاتبات والكُتّاب، وزملائهم الفنانين، أصبحوا يسجّلون بشكل شبه يومي ما يجري معهم، وصاروا أكثر جرأة في نشره وتعميمه، وكثيرا منهم بات لديه مشاريع أدبية، خلال الحرب وبعدها، تعتمد على الحرب وتأخذ منها مادتها. كما أنّ بعض الكُتّاب الذين يعيشون خارج غزّة، وإنطلاقاً من وازع وطني وتشاركي، أضحوا يسّجلون يوميات هذه الحرب بطرق مختلفة. ثمّة حالة إدراك لهذه الضرورة التي تجعل من الكتابة عن الحرب جزءاً من النضال من أجل وقفها، ومن أجل صمود الضحايا تحت القصف.

تغدو مهمّة الكتابة عن الحرب ضرورية، خاصة حين تكون فكرة النجاة أمراً غير مؤكّد، ويكون الموت أمراً ممكناً بشكل كبير، لأنّها وقتها تعني تسجيل الحياة التي يمكن أن يحياها المرء. من هنا، أدب الحرب، إذا جاز التعبير، كما يُكتب في فلسطين، يختلف بشكل واضح عن مجمل ما يمكن إطلاق صفة أدب الحرب عليه في الأدب العالمي. هناك نصوص أدبية عالمية كثيرة سجّل فيها كُتّاب حياتهم خلال الحرب، ولكن هذه أيضاً كانت بدافع أدبي بحت في أحيانٍ كثيرة، أما رواية الحرب العالمية فقد أخَذت من الحرب سياقاً عاماً، مثل خشبة المسرح بالنسبة لنصوص الفنّ المسرحي من سوفكليس حتى سعد الله ونوس.

ما أقوله أنّ سياق الكتابة عن الحرب في فلسطين مختلفٌ بشكل واضح، فالكاتب الفلسطيني يقوم بتسجيل يومي للحياة ولتفاصيل ما يتعرّض له بغية، أولاً نقل ما يجري بشكل دقيق معجوناً ببعض الانطباعات الشخصية، هل ما زال الأدب أو الفن ضمن نطاق الوعي الأرسطي محاكاة للواقع؟ هناك شعور بوجود مهمّة ومهمّة خاصة وفردية تقع على كاهل الكاتب. مرّة أخرى، هذا سؤال أضيق من السؤال العام عن دور الكاتب ودور الكتابة، وبعيداً عن النقاش العام بشأن مجمل علاقة المثقف بالمجتمع، وهو يتعلق فعلاً بشعور الفرد بأنّ ثمّة واجباً عليه وأنّ هناك مهمّة لا بد أن يقوم بها من أجله شخصياً، ومن أجل الجماعة التي يعيش فيها. وثانياً، لأنّ الكاتب يريد أن يترك شيئاً يمكن للآخرين أن يقرأوه لو أخذته الحرب. كلّ الشعراء والكتاب الزملاء الذين استشهدوا في الحرب كان ثمّة قصيدة أو قصة في رؤوسهم لم يتمكنوا من سردها أو ترديدها على مسامع الآخرين. مهمة الكاتب هي الاحتفال بالحياة والاحتفاء بالذاكرة التي يريد لها أن تدوم. إنّ مهمة الكتابة ليست الخلاص، لأنّ الحرب لا تترك مساحات كبيرة للتفكير في هذا الخلاص، بل تخليد الألم، كما تسعى لتخليد السعي نحو النجاة أو تعمل على ترك المألوف ليصبح أسطورياً بالإفرط بعاديته.

والأمر كذلك، الكتابة عن الحرب جزء من عيش هذه الحرب، من التفكير فيها، ومن البحث عن الخلاص منها، ومن تذكّرها حين تنتهي. هل يريد أحدٌ أن ينسى؟ بالطبع لا، هل يريد أحد أن يتذكّر؟ أيضاً يصعب الجزم بـ«نعم» يقينية، إذ إنّ مثل هذه الكتابة بقدر ما توفّره، وثيقةً تاريخيةً واجتماعيةً واقتصاديةً وثقافيةً، فإنّها ستظلّ نصّاً يسعى إلى أن يجد طريقه في نهر الأدب الصالح لعبور الزمن، كما تعبر ذاكرة الحرب لأجيال.

> **مهمة الكتابة ليست الخلاص، لأنّ الحرب لا تترك مساحات كبيرة للتفكير في هذا الخلاص، بل تخليد الألم**

رفح، 27 مارس 2024 (ياسر قديح/الأناضول)

(روائي وقاص وزير الثقافة الفلسطيني السابق)

قمران و7 أَهلّة أضاءت ليلَ غزّة

عيسى الشعيبي

مع بداية الشهر السابع، ومنذ 185 يوماً وليلةً (4444 ساعة) من حرب أطبقت فيها السماء على الأرض، وبدت للأمهات والآباء كأنّها الدهر، لم يعبر سماءَ غزّة المدلهمّ إلا الطائرات المُغيرات صبحاً، القاصفات على مدار الوقت، ولم يُنِرْ سديمها المستباح غير وهج الصواريخ الذكيّة والقنابل الغبية المتساقطة على البيوت المكتظّة بالبنات والأولاد، وغيرهم من صنف «الحيوانات البشرية» الضارية، كما لم يزرها أخ كريم في الجوار، ولم تمرّ فوق نقيع دمها إلا المركبات الحربية وعربات المدفعية الثقيلة، وأصحاب الخوذات المُدجّجين بالبنادق الأوتوماتيكية، وشهوة الانتقام والأحقاد التاريخية. في خضّم حرب الإبادة الجماعية، سطع في سماء غزّة، وعلى حين غِرَّة، قمران أزرقان وسبعة أهلّة بيضاء، تلألأت كأنّها الدرّ، وتراصفت إلى جانب فيض من شهب وكواكب ونجوم بلا حصر لإشعال فتيل سراج هنا، وإيقاد شمعة صغيرة هناك، كانت على ضآلة لمعانها، كافية لتبديد بعض من ظلام ليل غزّة النازف البارد اللزج الثقيل البطيء، وبعث شيء من الأمل القليل في نفوس رهط عدّائين أقوياء، كاد طولُ الركض بلا طائل في ممر الماراثون يُتعبهم.

أوّل القمرين الأزرقين المكتملين كان قمر الأمين العام للأمم المتحدة، أنطونيو غوتيريس، الدبلوماسي البرتغالي الطيّب النبيل، الذي أطلّ على ركام غزّة من معبر رفح الحدودي مرّتيْن أو قلّ طلع علينا بدراً تاماً جميلاً كبيراً، بكبر قمر الحصّادين في موسم جمع سنابل الحنطة في فلسطين، فبدا لنا الأمين العام، وهو يعلن صيامه التضامني مع الجائعين، رجلاً سيداً ذا سلطة ضميرية بيضاء من غير سوء، أميناً حقّاً، موظفاً سامياً متفرداً في المقام الأممي الأرفع. القمر الثاني كان قمر المقرّرة الخاصّة بحقوق الإنسان في الأراضي الفلسطينية المحتلة، فرانشيسكا ألبانيز، قمر علا في السماء الغزّية الثانية، على هيئة سيدة إيطالية شجاعة، لا تخشى التخويف، وترفض الإسكات، فقدّمت للمنظمة الدولية تقريراً كاملاً متكاملاً عمّا توصّلت إليه تحقيقاتها المهنية، من وقائع جرمية وجرائم وحشية قارفها الاحتلال في القطاع المدمّر، فبدت لنا هذه الباحثة الحقوقية، ذائعة الصيت في جامعة جورج تاون الأميركية، صاحبة سلطة ضميرية يقظة قلّ نظيرها في المؤسسات الأممية.

أما الأهلّة السبعة البيضاء أو قل أصحاب الأرواح السبعة، المسكونة بمشاعر إنسانية خالصة من كلّ شائبة أو أنانية، فهم هؤلاء المتطوعون من وراء البحار، من منظمة المطبخ المركزي العالمي، ممن اغتالتهم قوات الاحتلال بدم بارد، وبتصميم ظاهر، لتفعيل حرب التجويع المتعمّدة، سلاحاً جهنّمياً ذميماً أو قل سلاحاً قروسطياً مرذولاً من أسلحة حرب الإبادة الجماعية، فطفق دمهم البريء على وجوه القتلة، حاصرهم من حيث لا يحتسبون، جرّدهم من كلّ زعم عن الجيش الأكثر أخلاقية، ونزع كلّ ما تبقى لها من شرعية مزعومة.

ذهبت مطالبات غوتيريس برفع الحصار أدراج الرياح، كما مرّ بيان المقرّرة الخاصّة ألبانيز مرور الكرام أيضاً، شأنهما شأن غيرهما من رؤساء المنظّمات الدولية، غير أنّ دماء عمال الإغاثة السبعة من المطبخ المركزي العالمي، فاءت على غزّة فجأة، وأضاءت ليلها الطويل دفعة واحدة، فكانت بتداعياتها الهائلة بمثابة النقطة التي أفاضت الكأس، صنعت التحوّل الذي طال انتظاره، وربما أحدثت الفرق، وكتبت السطر الأول في دفتر الهزيمة الاستراتيجية لدولة تتعبد في محراب القوّة، لمجتمع انفجرت كلّ تناقضاته الداخلية وراح يتفكك، ولجيش فشل على مدى ستة أشهر في تحقيق أهدافه المعلنة. وهكذا أوقعت هذه الواقعة الاستثنائية أحفاد يوشع بن نون في سياق تصادمي لا رادّ له مع الأغيار، وأوجدت دينامية تعمّق العزلة والكراهية والنبذ. ورسمت خطّاً فاصلاً بين زمنين من عمر المذبحة، وقلبت الصفحة، إن لم نقل قلبت الطاولة على رؤوس القتلة، بدليل أنّها صدمت الجميع، بمن فيهم الصهيوني الكبير في البيت الأبيض، فقد ضيّقت عليه هامش المناورة، وحملته حَملاً على القول «كفى»، بعد أن صمت طويلاً على جرائم ربيبته المدللة.

عاصمة «قلّة القيمة»

محمد طلبة رضوان

وما الذي حدث؟ الرجل نقل أجهزة العاصمة من العاصمة إلى العاصمة، وسط البلد في القاهرة وطريق السويس في القاهرة، وهنا مصر وهنا مصر، وأحمد كالحاج أحمد، ما لكم؟ كيف تحكمون؟ ولماذا تندبون؟ أحياناً يكون الأسوأ من تبرير «المصايب السودا» عدم الوعي بكونها «مصايب سودا»، والاختباء داخل منطقة راحة متوهّمة اسمها «نختلف معه ولكن...»، و«نحن ضده لكنّ الإنصاف يقتضي...»، وقد تعوّدت، وقد أكون مخطئاً، أنّ طالب الإنصاف الحقيقي لا يُخطئه، فإن لم يصبه فالعيب، غالباً، فيه. مصر.. كلمة لها دلالة عند من ينطقونها.. مجرّد أن تقول مصر فهذا يستدعي، ابتداء، ثراء التاريخ. هنا شخصيتنا، وهنا «خزائن الأرض» التي تحتاج إلى «حفيظ عليم»، حفيظ يحفظها من مطامع القريب والغريب، وعليم يعلم قيمتها، فيُحسن إدارتها ويَخلُق منها وبها واقعاً جديداً يستحقّ أن يتحول، بدوره، إلى تاريخ عظيم، ومن هنا المستقبل. ليس في خزانة مصر اليوم سوى «القيمة»، قيمة الأرض، القِدَم، العمق، التاريخ المتشابك والمعقّد والأجمل كقطعة «أرابيسك»، ومن يدهس هذه القيمة، ظنّاً منه أنّ الذهاب إلى مستقبل الدولة يقتضي المرور على وجه «القيمة» وهرس جثّتها، ومساواتها بالأسفلت، فهو قليل الحفظ، قليل العلم، معدوم القيمة، ومن ثم لا مستقبل له هنا.

أراد الخديوي إسماعيل أن تكون له قاهرته التي تشبه باريس، وأن يتجاوز أزمنة الفاطميين والمماليك والعثمانيين إلى زمانه، لكنه أدرك، أو ربما وجد من يستدرك عليه، أنّ القاهرة أكبر منه ومن سابقيه، وأنّه لا قاهرة لمن لا تاريخ له، فالقاهرة والتاريخ صُنوان، وجها عملة واحدة. فما كان منه إلا أن جاء بصاحب الخطط، علي مبارك، مؤرّخ العمران ومهندسها. مؤرّخ يحفظ التاريخ عن ظهر قلب، ومهندس يعلم ما يقتضيه العمران. وتحت إدارة مبارك عمل المهندسون «الخواجات»، وكانت الأولوية في العمل للمهندس الذي قضى وقتاً طويلاً في القاهرة. عزفت الأوركسترا مقطوعة القاهرة الخديويّة، التي كتب «نوطتها» علي مبارك، فجاءت أنغامها شرقية مصرية قاهرية، وإن كان العازفون غربيين. جاءت القاهرة الخديويّة امتداداً حضارياً لقاهرة المعزّ وعصورها، وحلقةً جديدةً من حلقات العاصمة الفرعونية «أون»، والعواصم العربية: الفسطاط، ومدينة العسكر، والقطائع، وحاضنة تواريخها؛ القاهرة.

هل الاحتفاء بالقيمة خصيصة مصرية؟ لا بالتأكيد، إنما إنسانية، ولا نبالغ إذا قلنا فطرية، فلا إنسانَ طبيعياً، غير مشوه، لا يبحث عن قيمة في تاريخه تسند وجودَه، وتشحن طاقته، وتلهمه المستقبل، ولو لم يجد قيمته لاخترعها أو سرقها من غيره، كما يسرق الجائع ليأكل، فالقيمة من الحاجات الأساسية، وليست ترفاً أو رفاهية أو كلامَ «أفنديات». ثمّة بلاد متقدّمة تضع في متاحفها أحجاراً صماء، لا صوت لها، ولا صورة، ولا شخصية، مجرد حجر، بلا معالجة فنّية تمنحه قيمةً في ذاته، ورغم ذلك يُحتفى به، وتخبرك المادة التعريفية أنّ هذا الحجر عمره خمسمائة عام، ولذلك فهو قيمة، قِدَمُه المجرد قيمةً تستحق الاحتفاء، فيما بلد مثل مصر، هنا والآن، لديها مدن تتجاوز أعمارها الألف عام، وبدلاً من معاملتها كمتحف مفتوح، يجري تجريفها، تجريف مبانيها، من أجل «كوبري»، وتجريف معانيها من أجل لا شيء أو بالأحرى من أجل التغطية على لا شيء. من هنا تأتي العاصمة الإدارية الجديدة، في مصر، امتداداً سرطانياً للوقت لا للمكان، للحظة لا للتواريخ، نتيجة بديهية لما قبلها من سياسات، وصورة مكبّرة لما حولها من ارتجالات، فلا هي عاصمة حكم معبّرة عن شخصية البلد التي تحكمه، ولا هي محاولة للإضافة والمراكمة والامتداد الحضاري المشروع. والمدهش، أنّها عاجزة أيضاً عن منافسة غيرها من إكراهات الوقت و«اللقطة»، فهي لا ترقى إلى مقارنتها بـ «تفريعة» قناة السويس التي كلّفت ما يقرب من 4 مليارات دولار، وجرى تسميتها، «بروباغندا» قناة السويس الجديدة. ومع فشلها وتراجع إيراداتها، جرى الاعتراف بأنها مشروع لـ«رفع» الروح المعنويةِ للمصريين، (ربما إلى باريها)، فالعاصمة المتخيّلة ليست فرعاً من أصل، إنما نقطةٌ في فراغ، «كومباوند» وسط صحراء، وسموه عاصمة.

عن وليد الذي أصبح يحب أن يُسمّى «أبو ميلاد»

عزمي بشارة

حسبتُ أنّ جرائم إسرائيل في غزّة، وما نتعرّض له خلالها من صور معاناة الناس، ولا سيّما الأطفال وأهوال الحرب التي طردت العاديّ من حياتنا، سوف تُحصّننا من الحزن الشخصي أبداً، أو ستجعل منه شعوراً محرجاً يَحسنُ إخفاؤه. وكاد ولوغ دولة الاحتلال في دم غزّة يغطّي على جرائمها اليومية في قرى الضفة الغربية ومدنها، مع أنّها تجاوزت ما عرفته الضفة الغربية خلال انتفاضاتها. ويحتاج المرء إلى إجبار نفسه على تجاوز جدول الاهتمامات المصنّع إعلامياً لكي ينتبه إلى استغلال الاحتلال الحرب على غزّة لمراجعة كلّ شيء، بما في ذلك حتى مُنجزات الأسرى الفلسطينيين في السجون، المتعلّقة بإدارة الحياة في السجن، التي فرضوها بنضالاتهم. لم تشهد السجون الإسرائيلية هذه العدد من حالات القتل تحت التعذيب منذ العام 1967. هذا فضلاً عن سلب السجناء حقوقاً تفصيليّة مهمّة حصلوا عليها بمشقّة بالغة، بعد مطالبات ونضالات منظمّة دامت عقوداً.

حين تعاقب الأصدقاء في فلسطين، ليلة أمس، على إبلاغي بخبر وفاة وليد دقّة، اجتاحني حزن عميق، ليس فقط بسبب علاقة صداقة مديدة ومحبّة متبادلة، بل لأننا فشلنا في السعي إلى إطلاق سراحه حيّاً. أراد ذلك بشدة، كانت غاية مناه أن يتنسّم هواء الحرية، وأن يشم شعر طفلته ميلاد التي ولدت وهو خلف القضبان، وألّا يحدد السجّان له دقائق اللقاء معها. لم تجمعه بالسجن علاقة رومانسية من أي نوع. رام الحرّية، وأرادت إسرائيل الانتقام، ولم يكن ممكناً عقلنة هذا الدافع لديها برفض تحرير أسرى يحملون الجنسية الإسرائيلية خلال صفقات المخطوفين أو حتى التفاوض بشأنهم. مع ذلك، أمِلْنا أن يطلق سراحه في الصفقة القادمة، لكن الموت سبقنا إليه.

لا أنانية في هذا الحزن، فبعد خروجي من فلسطين أصبح التواصل متقطّعاً من خلال زوجته ورفيقة دربه، المخلصة سناء، ومن خلال أخيه أسعد، الذي كاد أن يكرّس حياتَه من أجله. وفي مكالمته الأخيرة معي من هاتف محمول مهرّب إلى السجن، أجهش بالبكاء حالما نطقتُ باسمه في الجانب الآخر. تحدّثنا طويلاً رغم تأثّره، وتحفّظي

> انتقموا من وليد دقّة، ليس لتهمة أنكرها فقط، بل أيضاً لأنه كان يمثّل تحدّياً وجودياً لهم. إنّه تجسيد لرفض الانقياد لهم

لعلمي أنّهم يتيحون تهريب هذه الهواتف للتنصّت على مستخدميها. الحزن كُلّه من أجله، إذ لم يخطُر ببالي أنّي سألتقيه ثانية، فقد خفق قلبُه بأمل الحياة للعيش ولو مدّة قصيرة خارج السجن. استحوذت عليه تفاصيل الحياة خارج السجن التي تبدو للناس عاديّة، وتبدو له حلماً بعيد المنال.

الروح الحرّة لا تألف السجن، ولا تعتاد الانشغال بتفاصيله الصغيرة. وقد تعرّفتُ إلى سجناء كُثر لم يكن ممكناً أنّ يمضوا الوقت الطويل من دون أن تستحوذ عليهم هذه التفاصيل. أحببتُهم جميعاً. أمّا وليد فكلمني عنها أيضاً، ولكنه انشغل بتفاصيل الحياة خارج السجن بكلّ ما طرأ عليها ولم يدركه قبل أسره. من السياسة الكبرى وحتى تفاصيل الحياة في بلدته، باقة الغربية، ومحيطها. لم يكن الانشغال بالدراسة والقراءة التي جعلت منه مثقّفاً داخل السجن، هدفاً أو رغبة بالحصول على شهادة جامعية، بل نوعاً من التحرّر بتجاوز معنوي لفضاء السجن و«روتينه»، وكنتُ شريكاً له في هذه العملية، وغيرها.

كان التوْق إلى الحرّية دافع هذا الرجل، المهذّب الرقيق الدمث، للصمود والاستمرار بالعيش داخل السجن طوال 38 عاماً. وما كان ممكناً أن يعشها متصلّة، فهذا هو الموت بعينه، بل جزّأها بنشاطه واتصالاته إلى أطوار. ولذلك، ففي حياة وليد في الأسر مرحلة ما قبل التعرّف إلى زوجته المناضلة في قضايا حقوق السجناء التي وقعت في حبّه وأحبّها، وبعدها. لم يكتفِ بلقاءاتنا، خشينا التنصّت، فكتب لي رسائل لا تنتهي حول هذا الموضوع، أعقبتها توجّهات متكرّرة إلى السلطات للسماح بعقد القران في السجن؛ ثمّة مرحلة ما قبل ولادة ميلاد وبعدَها، وقبل بداية الكتابة للنشر وبعدَها، وقبل تعرّف الناس إليه من كتاباته وبعدها. وربما طوْر قبل أن نلتقي وبعد أن التقيْنا. صنع لنفسه إذاً حياة ذات إيقاع مختلف عن إيقاع السجن، حياة تتحدّى الجدران، تتجاوزها. بعواطفه الجيّاشة وحبّه غير المحدود للناس من حوله حوّل عيشاً كان يمكن أن يكون صموداً انتظارياً أو كآبة رتيبة يملي إيقاعها سجّان أقل إنسانية وثقافة منه إلى حياة زاخرة بالحياة.

أذكر كيف جاءني في إحدى الزيارات الأولى بعد أكثر من عشر سنوات على سجنه مقترحاً أن نغيّر استراتيجية النضال من أجل إطلاق سراح السجناء، فنشدّد على حقوقهم بوصفهم مواطنين. كان يتاح لنا في حينه أن نجلس مع عدة أسرى سويّة (قبل أن يحرمونا منها ويشدّدوا إجراءات الزيارات، وأصبحت أزورهم فرادى ما يستغرق فتراتٍ طويلة). اتفق معه بعضُهم وخالفه بعضهم الآخر. اقتضت الخطّة التي وضعناها أن نطالب بتحديد فترة حكم المؤبد بالسنوات، مثلما يعامَل السجناء الإسرائيليون، بأن تخفَّض فترة الثلث بعد تحديد المدّة، كما يعامل السجناء الإسرائيليون أيضاً. فعلى دولة الاحتلال أن تختار، لا يمكنها رفض إدخال أسرى فلسطينيين في صفقات التبادل مع مخطوفين بحجة أنّهم مواطنون في إسرائيل، فلا يجوز لأيّ تنظيم فلسطيني أن يتكلم نيابة عنهم؛ وأن تأبى من ناحية أخرى معاملتهم بوصفهم مواطنين لهم حقوق المواطنين.

وضعنا الاستراتيجية وعملنا على تنفيذها سنوات طوال، حتى حدّدت فترة المؤبد بـ35 عاماً، وبـ40 عاماً في بعض الحالات. ولكنّ سلطات الاحتلال أبت أن تخفّض الثلث وظلّت على تعنّتها في رفض إدخالهم في صفقات التبادل. فشلْنا، وفي هذه الأثناء خرج من السجن أسرى أنهوا مدّة «الحكم المؤبد» المحدّدة هذه. وبقي وليد، فقد مدّدت له سنتان إضافيتان. مات في السجن كما خشي أن يحصل. استشهد كما يقال.

لم يُرد وليد أن يستشهد في السجن، أراد الحرّية. آذاني موتُه كثيراً لأنّي تخيّلت حسرته على فراش الموت وحيداً أسيراً. لم يكن من غاية يمكن أن يفهمها العقل البشري لتركه يموت وهو يعاني من المرض في السجن، بعد أن أنهى محكوميّته الطويلة. إنّه دافع الانتقام الذي يقلل البعض من أهميته في فهم سلوك دولة الاحتلال، وتفسير تصرّفات أفراد جيشها الهمجية في غزّة. انتقموا من وليد، ليس لتهمة أنكرها فقط، بل أيضاً لأنه كان يمثّل تحدّياً وجودياً لهم. إنّه تجسيد لرفض الانقياد لهم، والامتناع عن الامتثال لكلّ ما يعنيه الأسر المؤبد. كرهه السجّانون ومديرو السجون بسبب نشاطه ولغته وحيويته، وأيضاً بسبب ثقافته (فمن يحسب نفسه؟!)، وربما حتى بسبب ابتسامته التي لم تفارق وجهه. كانت كلّ مرة التقيته فيها عناقاً طويلاً ووداعاً على أمل لقاء كان يلحّ علي ويعاتبني حين يتأخر.

وداعاً وليد دقّة. وداع لا يشبه الوداعات التي فارقناها.

(مفكّر عربي)

هل نشهد فراغاً رئاسياً في أميركا بسبب إسرائيل؟

مالك ونوس

يقترب موعد إجراء الانتخابات الرئاسيّة الأميركيّة في ظل أكبر شاغل منذ ستة أشهر، والمقصود به الحرب الإسرائيلية على غزّة، التي يمكن أنّ يحدّد الموقف منها ومن تبعاتها، بل من تفاصيلها، اسم الرئيس الأميركي المقبل، بل قد يسبّب جولات تصويت إضافية أو اضطرابات في العملية غير معهودة من قبل. ويقع كلا المرشّحيْن بين نارين من غير الراضين عن سياساتهما ومواقفهما تجاه المذبحة الجارية في غزّة. ففي حين هنالك من يُحمِّل الرئيس جو بايدن مسؤولية عدم إيقاف الإسرائيليين حربهم، ومن ثم تسبّب مزيد من القتل بين المدنيين، هنالك آخرون، خصوصاً من مؤيدي دولة الاحتلال الإسرائيلي، يتهمونه بالتقصير تجاهها. وليس المرشّح دونالد ترامب ببعيد عن هذه المواقف، نظراً إلى أنّه طالب بوقف الحرب، وهو ما لا يحبّذه أعضاء اللوبي الإسرائيلي النشط في أي انتخابات أميركية. في ظل الدعم الأميركي للإسرائيليين في حربهم على الشعب الفلسطيني في غزّة، وفي ظل الإبادة الجماعية الموصوفة التي تنفّذها القوات الإسرائيلية في غزّة، يقتصر

> عقاب إسرائيل أميركا قد يكون بإحداث فوضى في الانتخابات الرئاسيّة المقبلة، وقد نشهد فراغاً رئاسياً على غرار الفراغ الرئاسي اللبناني

الضغط الأميركي على الإسرائيليين في طلب تجنيب المدنيين عمليات القتل، كما يردّدون. وفي المرة الوحيدة التي رفعت فيها الإدارة الأميركية القلق لديها، رفضت خطط تهجير أهل غزّة، في الوقت الذي رفضت فيه وقف الحرب رفضاً تاماً. ومع ذلك يجد الجانب الإسرائيلي هذه المطالب ثقيلة، وربما يعدّها تدخّلاً سافراً في شؤونه. ويحضرنا هنا ما كتبه وزير الأمن القومي الإسرائيلي المتطرف، إيتمار بن غفير، في يناير/ كانون الثاني الماضي، على منصة إكس قائلاً: «إنّ إسرائيل ليست نجمة في العلم الأميركي»، وذلك في إطار احتجاجه على انتقاد الأميركيين خطط تهجير الفلسطينيين من غزّة.

وعلى الرغم من الدعم الأميركي، الذي لم يتوقف منذ شنّ الإسرائيليون حربهم على غزّة، بعد عملية طوفان الأقصى، ومنها أخيراً الصفقة التي تنقل بموجبها الولايات المتحدة إلى الإسرائيليين 2000 قنبلة من نوع «MK84» التي تزن ألفي رطل، والتي كُشف عنها عشيّة اعتماد مجلس الأمن القرار رقم 2728 لعام 2024، في 25 مارس/ آذار الماضي، الذي يطالب بوقفٍ فوريّ لإطلاق النار في غزّة في رمضان، وإيصال المساعدات الإنسانية إلى أهلها. رغم ذلك، يبدو الإسرائيليون غير راضين عن الأميركيين. وعلى عكس ما درجَ عليه القادة الأميركيون من رفض دعوات وقف الحرب على غزّة، طالب الرئيس الأميركي، جو بايدن، للمرة الأولى، قبل أيام، نتنياهو بالوقف الفوري للحرب، خلال اتصال جمعهما بعد فترة من الجفاء بين الرجلين.

كما أنّ تصريحات الرئيس السابق، دونالد ترامب، التي تزامنت مع الاتصال بين بايدن ونتنياهو، وغيرها من تصريحات سابقة، يمكن أن تجلب للرجل غضب الإسرائيليين، وهو الذي عادة لا يتحسّب لتبعات الكلام الذي ينطقه، إلى حد قوله إنّ إسرائيل في حاجة إلى إنّهاء حربها على غزّة.

وكان ترامب قبل هذه الفترة قد اتهم بعض اليهود أنّهم «كارهون لإسرائيل ولدينهم» لأنهم يصوّتون لبايدن وللحزب الديمقراطي، مع العلم أنّ كثيرين من هؤلاء باتوا يرفضون السياسات الإسرائيلية، وأعلنوا، صراحة، ما مفاده أنّ «الحرب على غزة ليست باسمنا». كما اتهم ترامب من يصوتون منهم للحزب الديمقراطي بأنّهم معادون للسامية. إضافة إلى أنه أعلن مرّة أنّ على إسرائيل إنهاء المهمة سريعاً والعودة إلى السلام. وقد كرّر دعوته قبل أيام، مضيفاً أنّه لا يفضل طريقة إدارتهم للحرب، ما يجعلهم (الإسرائيليين) يخسرون حرب العلاقات العامة ويفقدون الدعم الدولي. أما ما يقصده بإنهاء المهمة فهو القضاء على «حماس». وأما السلام فهي كلمة لا تروق نتنياهو، وهو الذي أجمع كثيرون على أنّه يريد الحرب لأنّها سبيله الوحيد للبقاء في موقعه والهروب من المحاكمة التي تنتظره فور خروجه من السلطة، ما قد يجعله يستهدف ترامب بغضبه. وكان قد وقع خلاف بين ترامب ونتنياهو بعد انتخابات 2020 الرئاسيّة الأميركيّة بسبب دعمه بايدن ضد ترامب، مع أنّ ما قدّمه ترامب لإسرائيل لم يقدمه أيّ رئيس أميركيّ آخر.

على الرغم من كلّ الدعم الذي قدّمه كلّ من ترامب وبايدن، قال أحد الصحافيين الإسرائيليين إنّ الرجلين يديران ظهريهما لإسرائيل. لذلك، لا تبدو إسرائيل ممتنة لهما، ولا يمكنها أن تكون ممتنة أبداً، ومن المحتمل لذلك أن توقِع غضبها على الرجلين، وربما عقابها على الأميركيين جميعهم إذا ما رصدت تقصيراً من أي فردٍ منهم تجاهها. عقاب قد يكون عبر إحداث فوضى في الانتخابات الرئاسيّة المقبلة هذا الخريف، لذلك قد نشهد فراغاً رئاسياً في أميركا، على غرار الفراغ الرئاسي الذي نشهده في لبنان كلّما اقترب استحقاق انتخابي لهذا المنصب. عندها سيدفع الأميركيون الثمن، وسيصبح أيّ رئيس مقبل مجرد دميةٍ بيد الإسرائيليين، خوفاً على رأسه من عقاب إسرائيليّ محتوم إن هو أغضبهم، الغضب الذي هم وحدهم من يحدّد أسبابه ومقاييسه.

(كاتب سوري)

ناصر الزفزافي... صفحة يجب أن تُطوى

عبدالله هداري

في بادرة مثيرة للانتباه، ومع اقتراب عطلة العيد نهاية شهر رمضان، ونيابة عن الناشط والمعتقل السياسي المغربي ناصر الزفزافي الذي يقضي حكماً بالسجن 20 سنة، تقدّمت كلّ من لجنة العدل في جنيف و«فريدوم هاوس» ومنظمة الشرق الأوسط وشمال أفريقيا لحقوق الإنسان، في 1 إبريل/ نيسان الحالي، بالتماس مشترك إلى فريق الأمم المتحدة المعني بالاحتجاز التعسفي (WGAD)، في محاولة منها لتحريك هذا الملفّ الشائك، وتذكير الجهات المغربية المسؤولة بضرورة طيّه النهائي، ورأت فيه من أكثر الأشياء ضرراً بصورة البلاد، بل عنواناً غير مرغوب فيه لاستمرار مرحلةٍ لا تزال مطبوعة بقمع الحريات والحقوق في المملكة المغربية.

وبحسب ما يبدو لمتابعي الشأن المغربي، تكمن أهميّة هذه المبادرة أولاً، في محاولتها الاستفادة من المؤشّرات السياسية والحقوقية الأخيرة، فعلى سبيل المثال، صَنّف تقرير منظمة فريدوم هاوس لعام 2023 المغربَ بلداً حرّاً جزئياً، فوضعه التقرير في الرتبة 37 من بين مائة بلد، أما في مستوى الحقوق السياسية، فحاز المغرب تقدير 13 من 40، وفي مستوى الحرّيات

> في ملف تنظيم المونديال، ستسلّط الأضواء على المغرب بلداً مضيفاً من نواحٍ عدة، وليس على علاقة المغاربة بكرة القدم فحسب

المدنية حصل على رتبة 24 من 60. ومن دون أن نُذكّر بمناخ الانتخابات الجماعية الجارية في المغرب آخيراً، فهي أيضاً من السياقات التي تحاول المبادرة الاستفادة من أجوائها السياسية، بالإضافة إلى ذلك، يمكن التكهّن بأنّ هنالك إشارات ذات دلالات إيجابية للمتابعين للشأن السياسي المغربي، المتعلقة تحديداً بسلسلة متابعات الفساد على المستوى السياسي والإداري، والتي خلّفت رجّاتٍ قوية لجلّ الرأي العام المغربي، ولعل مستوى الجرأة الذي ميّز هذه المتابعات، جعلت الكثيرين يستبشرون فيها نوعاً من الاستعداد التدريجي لطي مرحلة حقوقية وسياسية.

أما الجانب الآخر من المعادلة، الذي يعلم الجميع أنّ المغرب لا يمكنه أن يدخله بالاكتفاء فقط بإعدادٍ جيدٍ لترسانته على مستوى البنى التحتية، بل لا بد أن تواكبه إصلاحات سياسية واجتماعية وحقوقية كبيرة، نقصد هنا ملفّ تنظيم كأس العالم 2030، الذي سيستضيفه المغرب بمعية البرتغال وإسبانيا. في ملف تنظيم كأس العام 2030، يعلم الجميع أنّ الأضواء ستسلّط على المغرب بلداً مضيفاً من نواح عدة، وليس على علاقة المغاربة بكرة القدم فحسب، ويعلم الجميع كذلك الأثر الذي من الممكن أن يحدثه الحضور الكبير لوسائل الإعلام الدولية، والتي بإمكانها أن تكون بوابة المغرب لمستقبل بوجهين، هو الوحيد القادر على اختيار أيهما يريد أن يكونه منهما.

وما دمنا نتحدث عن حقوق الإنسان، لا يمكن أن نتجاوز المجلس الوطني لحقوق الإنسان، الواجهة المؤسسية التي لا ينكر الجميع مواكبتها للتحولات التي يعرفها المشهد السياسي المغربي، ومواكبتها النقدية نسبياً للوضع الحقوقي في المغرب. على سبيل المثال نذكر المذكّرة الجيدة حول أزمة الإجهاد المائي التي أصدرها المجلس بعنوان: «الحق في الماء: مداخل لمواجهة الإجهاد المائي بالمغرب» في عام 2022، إلى جانب التقارير السنوية حول حالة حقوق الإنسان في المغرب، كان آخرها تقريره الصادر في 2022 بعنوان: «إعادة ترتيب الأولويات لتعزيز فعلية الحقوق»، والذي بيّن في عديد من الإحصائيات التي تضمنها، تداخلاً مهما للمجلس على المستوى الدولي مع الهيئات الحقوقية الدولية، إذ بلغت هذه الشراكات حسب التقرير 11 شراكة مع مؤسسات وهيئات أممية ودولية، بالإضافة إلى تسجيله تسعة مناصب يشغلها المجلس داخل الهيئات الإقليمية والدولية في مجال حقوق الإنسان، وتسجيله رصيد عشرة خبراء مغاربة في المنظومة الدولية لحقوق الإنسان...إلخ. وهي كلّها معطيات تؤكد أنّ الآلية المؤسّسية موجودة، وأنّ النظام المغربي يعي أهمية حضورها وفاعليتها أيضاً، ومما يدل على هذه الفاعلية، يمكن الاستدلال بتنامي نسب لجوء العديد من الأفراد والجهات والمؤسسات إلى المجلس الوطني لحقوق الإنسان قصد إنصافهم. ومن دون أن نغفل أنّ كلّ هذه الواجهات المؤسسية، إلى جانب الوثيقة الدستورية 2011، إذا لم تتجاوز منطق المناداة بفعلية حقوق الإنسان الذي لا يزال حالياً أفقها الحقوقي، والعبور نحو انفراجات حقوقية حقيقية، أي فعلية ملموسة، فإنّ كلّ ما ذكر آنفا سيزيد الطين بلّة، وسيعكس انتهازية في استغلال القوانين والمؤسسات بشكلانية فاضحة، وعلى مستوى دولي كبير هذه المرة.

قضى الشاب ناصر الزفزافي ورفاقه ست سنوات داخل السجن، ولا يمكن لعاقلٍ إلا أن يقرّر أنها كافية لاسترجاع النظام حكمته، والإنصات لصوت العقل، وفتح الباب لأبناء المغرب الغيورين على مستقبله، كي يسهموا كغيرهم في بناء وطنهم كما يريدونه وكما يرسمونه في مخيالهم.

تذكّر المبادرة أنّ الرسالة التي بعثها ناصر من سجنه إلى جائزة ساخوروف لحرية الفكر التي يمنحها الاتحاد الأوروبي للقادة السياسيين والمعارضين والنشطاء والكتاب والصحافيين، والتي كان ضمن قائمة مرشّحيها في عام 2018، قد أوردت عبارة هامة، تُفصح عن الأحلام التي تراود ناصر من داخل سجنه، والتي لخصها في «الاستيقاظ يوماً ما في عالم من دون أسلحة وأن تعيش شعوبه بسلام فوق هذا الكوكب الأزرق الجميل».

(كاتب وباحث مغربي)

العربي الجديد
www.alaraby.co.uk
تصدر عن شركة فضاءات ميديا ليميتد (Fadaat Media Ltd)

رئيس التحرير معن البياري ■ مدير التحرير ارنست خوري ■ المدير الفني إميل منعم ■ السياسة جمانة فرحات ■ الاقتصاد مصطفى عبد السلام ■ الثقافة نجوان درويش ■ منوعات ليال حداد ■ المجتمع يوسف حاج علي ■ الرياضة نبيل التليلي ■ تحقيقات محمد عزام ■ مراسلون نزار قنديل

المكاتب
■ المكتب الرئيسي، لندن
Ealing Cross, Second floor, 85 Uxbridge Road, London, W5 5TH
Tel: 00442045801000
■ مكتب الدوحة
الدوحة ـ برج الفردان ـ لوسيل ـ الطابق الـ 20 ـ
هاتف: 0097440190600

■ مكتب بيروت
بيروت ـ الجميزة ـ شارع باستور ـ بناية west end 33
هاتف: 009611567794 - 009611442047
■ البريد الإلكتروني: Email: info@alaraby.co.uk
■ للاشتراكات: alaraby.co.uk/subscriptions
هاتف: 97440190635+ جوال: 97450059977+
■ للإعلانات: alaraby.co.uk/ads